

## المقالة الثانية والعشرون<sup>١</sup>

### في الرحيل من هذا العالم

الطوبى لمن أبغض العالم الإنساني وتركه ، وصارت تلاوة حياته من الله وحده مفرداً .  
الطوبى لمن مقت الخطية الرديئة ورفضها ، وأحب الله وحده الصالح والمتعطف على البشر .  
مغبوط من صار على الأرض بمنزلة ملاك سمائي ، ومضاهي الشاروبيم، حاوياً أفكاراً بكل وقت  
طاهرة نقية .

مغبوط من صار طاهراً لله وقديساً ، ونقياً من كافة النجاسات والأفكار والأفعال الخبيثة .  
مغبوط من صار بجملته حراً للرب من كل أمور هذا العالم الباطل ، مغبوط من تمكن في عقلة ذلك  
اليوم العتيد الرهيب فحرص أن يداوي بالدموع جراحات نفسه ، مغبوط من صار بكليته مثل سحابة  
تسكب الدموع كل حين وطفأ اضطرار نار الآلام الخبيثة ، مغبوط من يسلك في طريق وصايا الرب  
صانعاً كل وقت منازل تلمع صفاء بالأمانة والمحبة ، مغبوط من نجح في عادات النسك الصالحة  
موقناً أنه يأخذ من الله ملكاً سمائياً ، مغبوط من يتذكر أمر القول المرهوب فأقام فمه حافظاً يرصده  
ألا يسقط من الوصية ، مغبوط من صارت نفسه كالنصبة الجديد نصبها الغضة الحاوية دائماً دموعاً  
من أجل الله مثل ساقية الماء ، الطوبى لمن غرس في نفسه نصبات حسنة أي الفضائل وسير  
القديسين ، مغبوط من يسقي غروسه بالدموع إذا صلي لتصير غروسه مرضية لله ومثمرة ،  
الطوبى لمن اضطرر بمحبة الرب كحترق بالنار فأحرق كل فكر دنس من نفسه ، الطوبى لمن صار  
باختياره كأرض جيدة صالحة مثمرة زرعاً جيداً مائة وستين وثلاثين ، الطوبى لمن وجد في حقل  
نيته البذار الجيد الذي زرعه السيد في حقله ، مغبوط من وجد الدرة الخطيرة السماوية فأباع ما له  
على الأرض وأبتاعها وحدها ، الطوبى لمن وجد الكنز المخبوء في الحقل فرفض كافة الأشياء معاً  
وأقتناه وحده ، الطوبى لمن يتذكر دائماً يوم انصرافه ويحرص أن يوجد في تلك الساعة وافر النشاط  
وبلا خوف ، الطوبى لمن وجد دالة في ساعة الفراق إذا فارقت النفس الجسم بخوف وأوجاع لأن  
الملائكة يجيئون يأخذون النفس ويفرقونها من جسدها ويقفون بها أمام موقف الختن الذي لا يموت  
والقاضي المرهوب جداً ، خوف عظيم في ساعة الموت إذا فارقت النفس الجسم بخوف ونحيب لأن  
النفس في ساعة الفراق تقف أمامها أعمالها التي عملتها في النهار والليل الصالحة والطالحة ،  
والملائكة متسارعون أن يخرجوها من الجسد فإذا رأت النفس أعمالها تجزع من الخروج ، تفارق  
نفس الخاطي بخوف وجزع الجسد وتمضي مرتعدة لتقف في مجلس القضاء الذي لا ينقضي  
فيقتسرونها أن تخرج من الجسد فإذا أبصرت أعمالها كلها تقول لهم بخوف " أعطوني مهلة ساعة  
واحدة حتى أخرج " فتجيب النفس أعمالها كلها : أنتِ صنعنا فمعك نمضي إلى حضرة القاضي .  
فلنمقتن يا أخوتي هذا العالم الباطل ولنحب المسيح وحده القدوس والفادي نفوسنا لأننا لا نعرف في  
أية ساعة يكون انصرافنا ولا يعلم أحد منا يوم الفراق وساعته لأنه بعتة حين نكون متخطفين  
ومتنعمين على الأرض بلا اهتمام يدهمنا الأمر المرهوب فتؤخذ النفس من الجسم وتمضي نفس  
الخطي في ساعة ويوم لا تتوقعهما موعوبة خطايا ولا اعتذار لها ، فلهذا الحال أطلب إليكم أن نصير

<sup>١</sup> كتاب: مقالات مار إفرام ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع  
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في بركة الأنبا مقاريوس  
طبع سنة ١٨٩٢

أحراراً ولا نتقيد بعبودية هذا العالم الباطل الوقتي الموعوب شكوكاً وفخاخاً ومقانس الموت ، فلنجنح نفوسنا ولنطيرها عن الشكوك والفخاخ لأن الخبيث كل يوم يطمر دائماً فخاخه قدام نفوسنا لكي ما إذا أقتنصها بالشكوك والفخاخ يقتنصها إلى العذاب الأبدي ، فلنصغ إلى ذاتنا حذرين أن نسقط في فخاخ الموت ، لأن فخاخ العدو موعبة حلوة فلا تتحل أنفسنا لحلاوة فخاخه التي هي الاهتمام بالأمور الأرضية لأن الأقوال والأفكار والأفعال الخبيثة هي الفخ ، فلا تستحل أيها الأخ بحلاوة المرئي ، لا تتراخ وتتحل بدراسة الأفكار الخبيثة فإن الفكر الخبيث إذا وجد مدخلاً للنفس يحلي لها الدراسة الخبيثة ويصير الفكر الخبيث كالفخ في النفس فلا ينترد بالصلاة والدموع ولا بالحمية والسهر فصر منذ الآن متيقظاً ومعتوقاً من كافة الأشياء الأرضية لتنجي من فخاخ الأفكار ومن الأفعال الخبيثة ، لا تتراخ طرفة واحدة وتتلى في مناجاة الفكر الخبيث ، لا تدع أن يلبث الفكر الخبيث في نفسك ، أيها الأخ أهرب دائماً إلى الله بالصلاة والصوم والدموع لتنجي من كافة الفخاخ والشكوك والآلام ، لا تترجى أيها الأخ أنك تعيش على الأرض زماناً طويلاً فتتراخي في دراسة الأفكار الخبيثة والأفعال الرديئة فيوافي بغيته أمر الرب ويصادفك أيها الخاطيء ليس لك وقت توبة واستغفار ، فماذا تقول أيها الأخ للموت في ساعة الفراق لأن الأمر يدهم فلا يترك ساعة على الأرض ، وكثير ممن ظنوا أنهم يعيشون زماناً طويلاً على الأرض فجاءهم الموت بغيته ، إن رجلاً خاطئاً وموسراً حاسباً سنيماً كثيرة على الأرض يعيشها في راحة ونعيم عاقداً باصابعه حساب رأس المال والرباء موزعاً عدد ثروته في سنين زمان طويل فدهمه الموت بغيته ففي طرفة واحدة بطل الحساب والغنى واهتمام العالم الباطل ، جاء الموت أيضاً فصادف رجلاً صديقاً متصور الموت دائماً بين عينية غير خائف من وروده ومفارقة الجسد متوقفاً أمله دائماً بين عينيه كما يليق بالفقيه الروحاني منتظر الفراق والمثول في مقام الرب ، أستعد في كل حين بمصباحك مثل عاقل ونشيط ، تفقد نفسك كل ساعة بالدموع والصلوات ما دمت تجد وقت أمهال ، أحرص يا حبيبي فإن زمانك يجيء بجملة موعباً عدم أمانة ، رخاوة ، ونية ، قساوة ، فلا يسمح لك أن تفكر في الرؤيات الفاضلة لأنه يدهشك . يا أحبائي قد عرفتكم كيف أن الأشياء الخبيثة كلها تشب وتنشئ كل يوم الأمور الرديئة ، فالخبيث يسبق بسعيه فيدل على الاختلاط الآتي والحزن العتيد أن يكون على وجه كافة الأرض هذه تنتج من أجل خطايانا كلها كل يوم ومن أجل رخاوتنا ينبت الخبيث على الأرض فلنصر متيقظين محاربين وادين لله غالبين كل وقت قتال العدو كاملين ، ولنعلم عادات الحرب لأنها لا تری ، وعادات هذا القتال هي التعري من الأرضيات ، إن أنتظرت الموت كل يوم لا تخطئ ، إن تعريت من الأمور الأرضية فلا تنهزم في الحرب ، إن أبغضت الأرضيات وأحتقرت الوقتيات تستطيع مثل محارب ذي شهامة أن تأخذ راية الغلبة فإن الأشياء الأرضية تسحب إلى أسفل ، والآلام تظلم عيني القلب في القتال ، لهذه الحال يغلبنا الخبيث في موقف القتال لأننا نفتني الأرضيات ، وبالاهتمام بالأرضيات نخدم اللذات ، كلنا اليوم نحب الأرضيات وعقلنا قد تسمر في الأرض من أجل رخاوتنا ، النهار قد مال إلى المساء وقد انتهى منذ الآن زماننا ونحن من أجل عدمنا الأمانة نظن أنه سيمتد ويطول ، ها ملكوت السموات على الأبواب ونحن عن هذا الأمر لا نؤثر أن نسمع ذكراً ، العلامات والآيات التي قالها الرب صارت ! أي أوبئة ومجاعات وزلازل مفرعة وحروب هذه كلها نعتقد بها كمنام يحدث بها بعضنا بعضاً ، فاستماع مسماع هذه المخاوف ومعاينتها لا تدهلنا . فلنهرب يا أحبائي إن الساعة الحادية عشرة هي ، ومسافة الطريق طويلة جداً ، فلنحرص أن نوجد في الطريق ولنكن متيقظين ولنستق من النوم غير هاجعين ، فإننا لا نعلم متى أو في أية ساعة يجيء سيد كافة الأرض ، فلنخفف ذاتنا من ثقل واهتمام الأرضيات فقد قال لنا الرب أن لا نهتم بشئ البتة ، وأوصانا أن نحب الكل معاً فنحن قد طردنا هذه المحبة فهربت من الأرض فتكاثرت الخطايا وغشا الظلم الكافة معاً كل واحد منا يتمني الأشياء الأرضية ويورثها ، ويتهاون بالمناقب السماوية ، ويتبغى الوقتيات ، ولا يحب الأمور المستأنفة ، أتوسر أن تكون سمائياً أبغض دائماً الأمور والأشياء التي على الأرض وأرفضها وانسك وأشتهي

ملكوت السموات ، لا تظن أن كثير عمل النسك وتعبه وتقول أنني حقير وضعيف ولا أستطيع أنسك ، تفهم كلمات مشورة نفيسة وصالحة ، تأمل ما لك أيها الأخ المحب للمسيح إن أثرت أن تسافر إلى بلد أو موطن بعيد لا تستطيع أن تسير كافة مسافة الطريق في لحظة واحدة هكذا هو الملك السماوي ونعيم الفردوس بالأصوام بالنسك بالسهر يبلغ إليه كل واحد ، فالحمية والدموع والصلاة والسهر والمحبة هي المنازل المؤدية إلى السماء ، لا ترهب أن تصنع ابتداءً حسناً للطريقة الجليلة المؤدية إلى الحياة ، أرغب أن تسلك في الطرق فإن وجدت ذاتك وأفر النشاط فالطريقة نفسها في الحين تتيسر أمام رجلك وتفرح سالكاً فيها وتصنع فيها منازل طرباً مبتهجاً وفي كل منزل تتقوى مسالك نفسك ، ولا تجد صعوبة في الطريقة المؤدية إلى السماء لأن الرب السماوي هو بذاته صار طريق حياة للمؤثرين أن يذهبوا بفرح إلى أبي الأنوار ، أيها المسيح المخلص صر لي طريق حياة مؤدية إلى الأب هذه وحدها هي السرور ونهايتها المملكة السمائية ، لقد صرت لي أيها السيد يسوع الإله طريق حياة واستنارة فأعترفت بذاتي من الينبوع مواهب موعبة شوقاً فصارت نعمتك في قلب عبدك نوراً وفرحاً وحلاوة في فم عبدك أحلي من العسل والشهد وصارت في نفس عبدك كنزاً (أي مسكنة) وطرقت الفقر والأثم ، صارت نعمتك لعبدك ملجأً وقوة نصراً وسمواً وفخراً وأغذية كافة الحياة ، كيف يصمت عبدك من وفور لذة محبتك أيها السيد ، ونعمتك التي فتحت فمي بلا استحقاق ، كيف يصمت لساني عما ينفعه من تسبح وتمجيد المعطي الخيرات وكيف أجتري أن أحبس أمواج النعمة النابعة في قلب الخاطئ الموعبة حلاوة في المواهب الجزيلة إنني أرتل تمجيداً لسيد السمائين المعطي خادمه المواهب السمائية بتعطفة الجزيل على البشر ، أعظم نعمتك أيها المسيح المخلص لأنني إذا عظمتها أعظم بها ولا أكف أن أتلو بلساني تمجيد نعمتك أيها السيد المسيح المخلص ، ولا تصمت معزفتي من الترنم بترنيمات روحانية ، إن شوقك يجذبني إليك يا فخر حياتي ونعمتك تحلي ذهني لأنجذب ورائك ليصير قلبي لك أرضاً صالحة قابلة بذاراً جيداً تنديت نعمتك ببناء الحياة الأبدية لتحصد نعمتك من أرض قلبي كل حين غمراً جيداً تخشعاً سجوداً طهارةً وكافة المرضيات لك ، أسترجع نفسي إلى صيرة ( حظيرة ) فردوس النعيم مع الخروف الذي وجد ، فلتوجد نفسي في النور ، إن ذلك الخروف لما وجدته حملته على منكبيك ، فأما نفسي هذه غير المستحقة فأقتدها بيدك وقدمتها كلاهما إلى أبيك الطاهر الذي لا يموت حتى أقول في نعيم الفردوس مع كافة القديسين المجد للآب الذي لا يموت وللابن الذي لا يموت والروح القدس الذي لا يموت والسجود للمعطي الحقير مواهب سمائية ليقرب غمر التمجيد لملك كافة البرايا له المجد إلى الأبد وعلينا رحمته .

أمين